تأملات فى الفن

الموضوع والمضمون

الليل ... لميكل انجيلو

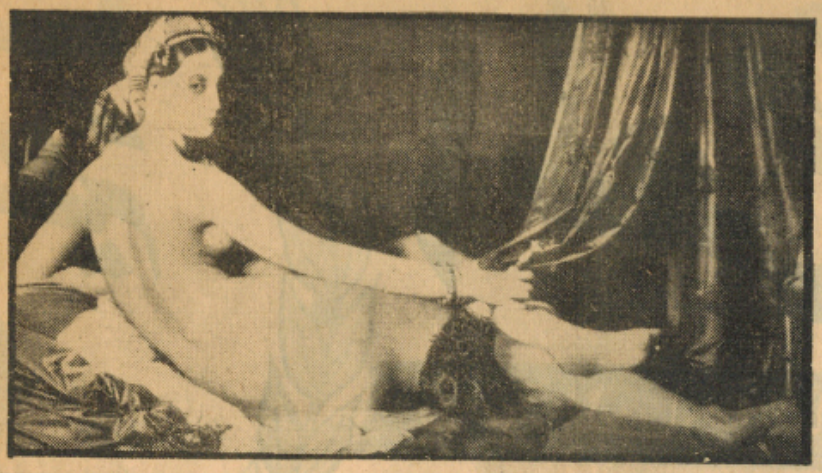

اودالیسك .. للفنان انجر

قد يتناول مصوران — ولنفترض انكليهما استاذ فى صنعته — موضوعا معينا ولنقل الامومة مثلا او جهد العامل ، فانبأحدهما يطالعنا بتحفة رائعة ، بينما لا نرى فى لوحة الاخر غير صورة متناكلها ضئيلة القيمةاو تافهة . فما علة هذه التفرقة ؟ الشائع ان يقال : انهالاسلوب ، الا اننا نفضل ان نقول : بل هو «الاسلوبخالقالمضمون» اوهو «المضمونخالق الاسلوب» — فالامر سيان . ذلك انه قد يمكن التمييز بين القالب والمضمونفى بعض فنون الادب ، ولكن ذلكيستحيل فيما يتعلق بالفنون التشكيلية ، بحكم انلغة الشكل هى لغة التعبير وسداه فى هذه الفنون .

وعامة الناس تخلط عادة بينالموضوعوالمضمون . فهم اذ يتيسر لهم ادراك الموضوع لسهولة قراءته ، يتصورونانهمقد وقفوا بذلك على بغيتهم العمل الفنى فى حين ان ادراك المضمون يتطلب ثقافةعميقة بقدر مايكون فى الفن من عمق . بل انه يتطلب ثقافتين : ثقافة خاصةتتعلقبنبضات لغة الشكل ، كما تطلب الموسيقى مثلا ثقافة خاصة تتعلق بنبضات لغةالانغاموثقافة عامة تتعلق بنبضات وجدانالانسان من حيث هو كائن فى الكون ، ومن حيث هوكائن فى عصر معين . ذلك ان المضمون فى الفن — على حد تعبير فنتورى — انماهو الحياة الروحية للفنان وللحضارةالتى ينتمى اليها . وهذا المضمون الروحى — المتطور فى الاسلوب — هو الذى يهمنا عندما نتأمل الفن المصرى القديم او فنميكل انجيلو او رامبرانت او بيكاسو : شأنه فى ذلك شأن المضمون الروحىالمتطور فى اسلوببيتهوفن اوسترافنسكى مثلا .

يبقى بعد ذلك ان نقول ان الموضوعفى الفن المصرى القديم — كما هو فى معظم الفنون القديمة — كان بمثابة رمزمقدس — ولذلك كان من الممكن ان يتخذ نقطة بداية للوصول الى المضمونالروحىولكن الرموز المقدسة قد تحولت — بحكم التطور الثقافى — الى رموز مجردة .ومن هنا نشأت ثلاثة اتجاهات فى تاريخ الفن : اتجاه يقنع بالتجريد المعمارى ،كما حدث فى مصر عقب ظهور الاسلام ، واتجاه آخر ينطوى على انفصالالمضمونعن الموضوع ، كما حدث فى الفناوربى ابتداء من عصر النهضة ، فاننا اذا تأملناتمثال «الليل» لميكل انجيلو مثلا ، ادركنا ان المضمون الروحى لايتعلق البتةبموضوعالليل ، وانما بالصراع النفسى الباطنى للفنان وللعصر الذى عاش فيه . وقدازدادهذا الانفصالبين المضمونوالموضوع حدة مع مرور الزمن حتى انتهى الىالاستغناء عنالموضوع كليةفى معظمبذاهب الفن الحديث .

اما الاتجاه الثالث فهو ذاك الذىينشدالجمال فى ذاته باعتباره قيمة ابدية ، ونستطيع ان نلمح هذا الاتجاه حتى فىبعض التماثيل المصرية الصغيرة ، ولكنه اشتد عند الاغريق ، ثم بين بعض فنانىعصر النهضة ، كرافاييلو مثلا ، ثم فى عهد الكلاسيكية الجديدة على يدى انجرعلى الاخص ، واخيرا فى بعض المذاهب الفنية التى ظهرت فى اوائل هذا القرن

رمسيس يونان

(أنشرت بجريدة الأهرام فى ١٩٦٢/٦/٢٩)

Article de Ramsès Younan